١

حول مصطلح الانسان في القرآن

بقلم الدكتور:
محمد أحمد العزب

ولست اريد ان اقف بمحدوديتى عند هذه الجوانب التى طرقها علماؤنا الكبار ، وانما اريد ان ألمس جانب قضية أخرى تتصل بالاعجاز البيانى للقرآن الكريم في تناوله لمصطلح (الانسان) بلفظ (الانسان) فحسب .. وكيف أن هذا التناول شكل بتتابع وروده في عديد من الآيات قضية متكاملة تحيط بواقع الانسان المادى والنفسى والروحى والفكرى ، بحيث نستطيع إذا نحن تأملنا عناصرها جميعاً أن نصل منها الى يقين رياضى بأن الانسان في شموله وكليته لا يخرج عن إطار هذه الصورة . ولا يند عن منهج هذا التحديد . وهنا يكون وجه من وجوه الاعجاز البيانى لهذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه !!

حديث عن نوعيات من جنس الانسان :

والاساس الفلسفى الذى تستند اليه نظرية البحث عن الانسان في القرآن (نصاً لا تضميناً) . يتمثل في كون حديث القرآن عن الانسان كواحد من المؤمنين ، أو كواحد من الكافرين ، أو كواحد من هذه الآحاد الكثيرة المتنوعة التي تحكمها الصفة العقائدية أو السلوكية التى يضفيها عليه القرآن الكريم ، هو حديث عن نوعيات معينة من (جنس الانسان) ، وليس عن (الجنس الانسانى) بكامله ، ونحن نريد ان نرى (الانسان) في جميع أزمنته بما فيه انسان القرآن الكريم الذى هو المسلم ، لأن الرؤية في هذا الاطار تكون أشمل للواقع الانساني من مجرد حصرها في زاوية من زوايا هذا الواقع الانسانى المتراحب العميق .. لأن الفلسفة القرآنية في هذا المجال تفهم على أن تجسيد خصائص الانسان في عمومه واطلاقه يضع الانسان المسلم بالضرورة في حالة حضور جدلي مع هذه الخصائص المجردة ، فما كان منها موائماً لطبيعة الهوية الاسلامية اصطفاه وعمقه ، وما كان منها مصادماً لهذه الطبيعة أو هذه الهوية تحاماه وتجاوزه .. وبهذا يكون الانسان المسلم انساناً تاريخياً يعيش الزمن بأضلاعه المثلثة : الماضى والحاضر والمستقبل ، ويتحسس في وجهه ملامح البررة الغابرين والمعاصرين والذين يجنهم الغيب في ضميره ما يزال ، فتتحقق بذلك النوعية وخلوده التاريخى !!

ونعترف منذ البدء . ان هذا الذى نطمح الى تجليته شيء اكبر من حجم دارس واحد أو دراسة واحدة ، ولكنه ـ على أية حال ـ محاولة اجتهاد مخلص ، ان أخطأ فله أجر ، وان أصاب فله أجران .

أساسيات المنهج القرآني في حديثه عن الانسان :

والقرآن الكريم يقيم منهجه في حديثه عن (الانسان) على عديد من الاساسيات المنطقية التي تفضي كل واحدة منها الى ما يليها ، حتى اذا تكاملت أبرزت بناء منهجياً متلاحم الأنساق ، متناغم الجوانب ، متكامل الايقاع .. **ويمكن أن نلخص أبرز أساسيات هذا المنهج فيما يلى :**

ـ خلافة الانسان لله في الأرض ، ودعوة القرآن للانسان أن يلتزم بمنهج خالقه ومستخلفه .

ـ كان الانسان بمقتضى هذه الخلافة مجلى لروعة الاعجاز بما وهبه الله من طاقات فكرية وشعورية .

للقرآن الكريم في حديثه عن الانسان منازع شتى واتجاهات متباينة ، فهو يتحدث عن الانسان كواحد من (بنى آدم) .. وعن الانسان كواحد من (المؤمنين) .. وعن الانسان كواحد من (الكافرين) .. وعن الانسان كواحد من (المتقين) .. وعن الانسان كواحد من (الظالمين) .. وعن الانسان كواحد من (المحسنين) .. إلى ما ورد في القرآن الكريم من تنويع الأداء البياني في حديثه عن الانسان بما يتفق مع كل قضية من قضايا الطاعة أو المعصية ، وما يتواءم مع كل موقف من مواقف التمرد أو الذهول .

وقديماً وقف المفسرون والعلماء عند كل جانب من هذه الجوانب بما هيئوا له من اقتدار على استنباط الحكمة ، واستلهام المعنى ، واسترفاد روح النص القرآني المعجز بكل ما ينطوى عليه من بلاغة المعنى وبلاغة السياق ، فتركوا لنا زاداً هائلا من التأمل الفكرى فى كتاب الله يتشامخ على مر الزمن ، ويتراحب على تعاقب الأجيال .

● **ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله**

«عمر بن الخطاب رضي الله عنه »

ـ وكان كذلك بمقتضى هذه الخلافة أيضاً مناطاً لرعاية الخالق .
ـ فسلحه بالعقل .
ـ وحرسه بالرسالات .
ـ وسخر له الكون ليمارس فيه اقتداره على الفعل والابداع .
ـ وتحدث إليه حديثاً حميماً عن عناصر تكوينه الخلقي والخلقي .. فلفته الى جموحه وتمرده .. ولفته الى ضعفه الكامن في طبيعته .. ولفته الى ضرورة التسامى والالتزام .. وملأ وعيه بوصايا الحب وحكمة التفكير .

مما يؤكد أن الله هو الخالق الدائم ، والانسان المخلوق المتفلت وبينهما هذا الحب الذي لاينقطع من جانب الخالقية ،وهذا الجموح اللامبرر من جانب المخلوقيـــة ، وهـكذا في جـــدل لا ينتهي .

هذه هى أبرز أساسيات المنهج القرآني في حديثه عن الانسان بصيغة (الانسان) نصاً .. لا تضميناً .. وهي أساسيات تتلاحم عناصرها ومفرداتها كما نرى .. ويفضي بعضها الى بعض فيما يشبه التناغم الحي الذى لا نتوء فيه ولا نشاز .. والذي يحيط بجوانب الظاهرة ، ويضيء آفاق رشادها وضلالها .. ويلمس دائماً فيها مناطق الاحياء واثارة النوازع العليا . ويتفرد بطاقة التعلية والتعديل والترشيد غير مكتف بتشخيص الهبوط ، أو تحديد التدلي ، أو تجسيد الجنوح .

الخاصية الفريدة :

إذا كان الانسان .. (هو الجامع لجميع العوالم الالهية والكونية ، الكلية والجزئية) (كما يذكر ذلك الجرجاني في كتابه تعريفـات ص : ٣٩) فهو لم يتبوأ هـذه المكـــانة من التكريم في الوجـــود الكوني عبثـــاً ولا باطلا وانما للخاصية الفريدة التي تميز بها عن غيره من الكائنات ، وهي : (العقل) فالجماد لا يحس ولا ينمو ولا يفكر .. والنبات ينمو ولكنه لا يفكر ولا يحس .. والحيوان يحس وينمو ولكنه لا يفكر .. والانسان يفكر ويحس وينمو .. أى انه الكائن الوحيد الذي يمتلك القدرة على التفكير .. أي تعقل الأشياء .. ولكن العقل ليس مجرد تعقل الأشياء ، فمن الحيوانات الدنيا ما يسمع ويطيع . وفي هذا بعض الايماء الى انه عقل شيئاً فسمع ، وعقل شيئاً آخر فأطاع .. ولكن العقل في المفهوم الاسلامي هو البصيرة الحاكمة والوسيلة التى تهدي الى الخير وتقبح الانحدار :

عن عمر رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ، ويرده عن ردى وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله .

وروى الحكيم الترمذى عن أنس رضى الله عنه قال : أثنى قوم على رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كيف عقل الرجل ؟ فقالوا : نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير ، وتسألنا عن عقله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم ، إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر ، وانما يرتفع العباد غداً في الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يا رسول الله ، بم يتفاضل الناس في الدنيا ؟ قال : بالعقل ، قلت وفي الآخرة ؟ قال : بالعقل . أليس إنما يجزون بأعمالهم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله عز وجل من العقل ، فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم ، وبقدر ما عملوا يجزون .

حول مصطلح
الانسان في القرآن

- إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر « حديث شريف »

- العقل في المفهوم الإسلامي هو البصيرة الحاكمة وليس مجرد وعاء لفهم و استيعاب حقائق الأشياء

هذا هو تحديد العقل في المفهوم الاسلامي بكونه البصيرة الحاكمة والوسيلة التي تهدي الى الخير وتقبح الانحدار .. هو بصيرة لأنه وسيلة وعي الانسان بحقائق الكون وأسرار الطبيعة وقضايا الوجود .. وهو بصيرة حاكمة لانه يفضي من مجرد المعرفة إلى جوهر الالتزام .. فحين يلم بحقائق الكون يتصعد من ذلك الى الايمان بمكون هذا الكون .. وحين يدرك من أسرار الطبيعة يتصعد من ذلك الى الاقرار بخالق الطبيعة .. وحين يفقه عن قضايا الوجود يتصعد من ذلك الى التسليم بحتمية وجود واهب الوجود .. وهو حين يفعل ذلك كله إنما يفعله من منطلق الصيرورة إلى فعل كل مأمور به ، والتأبي على فعل كل منهي عنه .. وفي هذه الحالة يصبح العقل بالفعل (بصيرة حاكمة) وليس مجرد وعاء لفهم واستيعاب حقائق الأشياء !!

وهذا هو المبرر الموضوعي لمخاطبة القرآن للانسان وحده ــ دون كل الموجودات ــ واعداً مرة ، ومتوعداً أخرى ، ولافتاً إلى حقيقة ضعفه الكامن في طبيعته مرة ثالثة ... وهو في وعده ووعيده وترشيده يصدر عن رعاية شاملة لهذا الكائن الانساني المليء بغرور السطوة والاقتحام ... إن الانسان وحده هو الذى يستطيع أن يفهم عن القرآن ومن هنا يتوجه القرآن إليه وحده بالحديث ، فاذا أراد أن يتوجه إلى غيره من ظواهر الطبيعة والكون والحياة توجه إليها من خلاله ، لأنه يضعها دائماً في إطارها الذى خلقت له ، وهو أنها موجودة ليس لذاتها وإنما لهذا المخلوق الالهي المعجز الذي هو الانسان .. ولذلك كان الانسان مطالباً ــ من خلال استخلافه في الأرض ــ بأن يفجر الحياة في الجدب ، وأن يستولد الممكن من المستحيل ، وأن يترك وجوده أغنى مما تلقاه ، فهو حلقة في سلسلة الوجود المتراحب ، عليه أن يقوم بدوره في مرحلته ، حتى يستمر تدفق تيار التطور على الأرض وتتواصل حلقات الابداع في شتى جوانب الفكر والحياة .

ولأن الانسان مأمول لهذه الغاية الجلية ، فان السماء لم تدعه وحده في مواجهة هذا التحدي الكوني الكبير .. ولكنها أعطته رعيلا من القادة : الرسل ، ورعيلا من المشاعل : الرسالات ، وملأت وجدانه دائماً بهتاف الدعوة إلى تأمل كل ما حوله ، وتعمق كل ما حوله ، وتطوير كل ما حوله .. لقد أغرته بأن الطبيعة ما تزال على المدى بكراً ، وأن اعماقها تجن ملايين الاحتمالات ، وأن دوره على الأرض لا يقاس بما عاش من آماد وإنما بما فجر من قضايا ، وما أحدث من تغييرات، وان الذى وهبه الطاقة العاقلة وهبه المجال الحيوى الذي يستوعب هذه الطاقة ويشبع نهمها الباحث الدؤوب .

ونستطيع في ضوء هذه الحقائق الرائعة أن نفهم بعض الحكمة في كون الانسان كان مجلى لروعة إعجاز الله في الخلق .. لقد كان الانسان (بما هو مستخلف لله) .. مجلى لروعة إعجاز الله في الخلق خلقه في أحسن تقويم ، وعلمه الاسماء كلها ، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا ، وسلحه بكثير من الطاقات الفكرية والشعورية ليحقق معنى الاعجاز في الخلق ، ومعنى استمرار وتدفق الحياة في الحياة .

وهكذا كان الانسان مناط الحركة والوحي والتبليغ ، استخلفته السماء على الأرض ، وأودعت فيه من الطاقات ما يحرك به هوامد الأشياء ، ودججته بالعقل الحاكم والرسالات المضيئة . وسخرت له الكون ليمارس فيه اقتداره الخارق على الفعل والابداع !!

العبرة بعموم اللفظ :

يبقى أن ننبه الى بديهية في مطالع هذه الرحلة .. وهي اننا ركزنافى استشهاداتنا القرآنية على القاعدة الأصولية القائلة : إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فقد نستشهد بآية أو بآيات تكون في بدء نزولها مرتبطة بواقع معين أو حادثة بذاتها ، ولكننا نضعها حيث يمكن أن تكون شاهداً على كل الواقع الانساني وكل الحوادث الكونية .

والقرآن الكريم ممحض منذ البدء لهذه الغاية الجليلة : أن يكون شاهداً على كل البشر وكل العصور ، وليس شاهد فرد أو مرحلة مهما ارتبط منطوقه بهذه أو ذاك أو غيرهما من أسباب النزول .. وبهذا الفهم يتاح لرحلة التلقي عن القرآن أن تكون أرحب رحابة ، وأرشد رشاداً ، وأعمق أثراً في تاريخ الحضارة المادي والروحي والفكري جميعاً بلا تفريق .. وإذن ، فلننطلق على ضوء هذا الفهم .. ولنحاول أن نفهم في أدب وعمق عن حكمة القرآن العظيم .

طبيعة (الانسان) في ضوء القرآن :

ويتردد مصطلح (الانسان) في القرآن الكريم بين معاني منها : تمرده على خالقه ، ولجاجه في هذا الصدد على مستويات تتسع هنا وتضيق هناك .. وحين يتحدث القرآن الكريم عن تمرد (الانسان) نراه ينوع حديثه على هذه المستويات المتعددة :

- مستوى ضراعة الانسان في الشدة وتمرده في الرخاء .
- ومستوى مسرة الانسان في العطاء ، وكفره في المنع .
- ومستوى بطر الانسان في النعمة ويأسه في الحرمان .
- ومستوى غياب الانسان عن حكمة الوعي بآلاء السماء مع تعددها وشمولها .

● إن الله لم يدع الإنسان وحده في مواجهة هذا التحدي الكوني الكبير ولكن أعطاه رعيلا من القادة والرسل ورعيلا من المشاعل: الرسالات وملأ وجدانه دائما بهتاف الدعوة إلى تأمل كل ما حوله وتطوير كل ماحوله

– ومستوى فقدان الانسان لذكاء الطبيعة ، وانحصاره في ضيق الواقع المادى الذى يعيشه ولا يتجاوزه إلى ما عداه .

والقرآن الكريم حين يتحدث عن تمرد الانسان من كل هذه الجوانب المتقابلة والمتضادة ، إنما يعطي للظاهرة الانسانية في جانب من جوانب انحرافها عن سواء الفطرة كلية الاحاطة وشمول الاستقصاء .. فهو يسلط الضوء الهائل الكاشف على تقلب الانسان بين الضرع ، والعصيان ، والمسرة ، والكفر ، والبطر ، واليأس ، والجمود ، والغباء ، من خلال تعاقب بعض الظواهر المادية العرضية عليه : من شدة ، ورخاء ، ومنع ، وعطاء ، ونعمة ، وحرمان ، وهتاف الواقع الرائع من حوله ، وجبن ذكائه خوفاً من تجاوز أسوار المادة ، وهي بعض الظاهرة الكونية وليست كل الكون أولاه وأخراه .

والرائع بحق .. في حديث القرآن الكريم عن تمرد (الانسان) على تغاير مستويات هذا التمرد ،، أنه لا ينفض يديه منه ، ولا يرفض عودته ، وانما هو على النقيض من ذلك ، يتحدث عن تمرد هذا الانسان ليفجر فيه مناطق الوعي بضرورة العودة ، وحتمية الانتماء الى مصدره الخالق ، مهما أوغل في التطوح ، وبالغ في الاباق .. إن حديث القرآن مبطن دائماً بالرثاء والعطف على هذا الجموح العاجز المتمرد ، مبطن دائماً بمحاولات إحياء ما همد من مشاعر العرفان الآدمى التى قد يرين عليها من لوازب المادة وضروراتها ما قد يحول بينها وبين انطلاقها في فضاء الشوق الأبدى إلى مخالطة الاقرار والتعبد بلا نظر الى عوارض تطرأ أو عوارض تزول .

إن القرآن الكريم يتحدث عن مستوى ضراعة الانسان في الشدة ، وتمرده في الرخاء حديثاً يلمس أعمق أعماق الظاهرة السلوكية للانسان الذي لم يمارس إيمانه الكامل بعد .. إن هذا الانسان يتعامل مع القضاء والقدر تعامل المنفعة لا تعامل الالتزام :

« فاذا مس الانسان ضر دعانا ، ثم إذا خولناه نعمة منا قال : إنما أوتيته على علم ، بل هي فتنة ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » (الزمر : ٤٩)

« واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيباً إليه ، ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو اليه من قبل . وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ، قل تمتع بكفرك قليلا انك من اصحاب النار » (الزمر : ٨)

« واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » (يونس : ١٢) .

« واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم الى البر أعرضتم ، وكان الانسان كفوراً » (الاسراء : ٦٧) .

وهكذا يضيء القرآن الكريم جوانب الظاهرة السلوكية لانسان المنفعة الذي لم يتخلل الايمان الحقيقي قلبه بعد ، فهو ضارع في الشدة ، متمرد في الرخاء ، وفي هذا مفارقة للمنهج الاسلامي في تربية أبنائه على نوعية من الايمان العقيدي الذي تلامس الشدة منطقة صبره واعتصامه فيحمد الله ويستعينه ، ويلامس الرخاء منطقة شكره وعرفانه فيسجد لله ويستزيده ، ولكن جوهره فى الحالتيْن هو هو لا يتغير ، فلا تعصف به زعازع الشدة ، ولا يميل به حفيف الرخاء !!

تعرية الاقتدار البشري :

ويتحدث القرآن الكريم عن مستوى مسرة الانسان في العطاء ، وكفره في المنع حديثاً يكشف عن جنوح الطبيعة الملتوية وتهليلها للوفرة ، ثم تقطيبها في وجه الاقلال ، مضمناً حديثه في هذا الصدد نوعاً من تعرية الاقتدار البشري عن أن يستطيع لنفسه بنفسه ، ليعرف دائماً أنه محكوم يتلقى العطاء والمنع بلا قدرة على تحصيلها ، فتصبح مسرته وكفرانه معاً قضية مغلوطة الأساس ، لأن الذي لا يستطيع لنفسه ولا بنفسه على أي شيء يكفر ؟ وبأي شيء يسر ؟ إن القرآن يضع العطاء والمنع في مستوى الابتلاء (والتجربة) :

« ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور » (هود : ٩) .

« فأما الانسان إذا ما إبتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول ربي أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن » (الفجر : ١٥ ـ ١٦) .

ويبدو التعبير القرآنى : (ابتلاه) مؤكداً أن مسرة الانسان وكفره خطل من خطل الطبيعة الجانحة ، لأن تحصيل المنفعة وفقدانها معاً يتمان ضمن اطار القضية الكونية بأسرها ، وليس ضمن مآرب الذات المفردة في ضمورها وأنانيتها .. ولأن المنع في جانب لا يعني المنع في كافة الجوانب ، فالنعيم المادي قد يكون مجلبة للتعاسة لا للسعادة ، وقد يكون حجبه عن الذات الانسانية في مرحلة من مراحل عمرها الزمني عاصماً من التدلي في بئر اللذات المادية الصارفة للانسان عن وجهة الجد وجدل الحركة الفاعلة في التاريخ .. ثم ان هذا المنع قد يكون هو نفسه حافزاً على مواصلة الابداع والتحصيل ، وبناء الواقع المادي على أساس من الاجتهاد الذاتي ..

وكذلك ينبغي أن يلتفت الانسان إلى أن ما لديه أكثر مما فقد ،ومن هنا تتساقط تباعاً حجج الكفر والانفلات !!

حول مصطلح

الإنسان في القرآن

● إن دور الإنسان على الأرض لا يقاس بما عاش من آماد وإنما بما فجر من قضايا

ويتحدث القرآن عن مستوى بطر الانسان في النعمة ويأسه في الحرمان حديثاً يغطي جانباً آخر من جوانب طبيعة السلوك البشري في إعراضه عند الامتلاء وتسخطه عند الاملاق :

« وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض » (فصلت : ٥١) .

إنه معرض إذا تحقق له الامتلاء والوفرة ، متسخط مرة ، ولاهج بالدعاء مرة أخرى ، إذا تحيفت الحاجة وفرته ، أو تعاور الاملاق امتلاءه ، فهو على الحالين إنسان بلا مضمون عقائدي يضيء بصيرة الوعي فيه .

ويتحدث القرآن الكريم عن مستوى غياب الانسان عن حكمة الوعي بآلاء السماء مع تعددها وشمولها حديثاً يستقصي بعض أبعاد الرحمة الالهية المنعمة التي يعيش في ظلالها الانسان ، والتي سخرتها له القوة الخالقة لتجعل من رحلة وجوده على الأرض سياحة فكر وعمل ، وقضية سيادة والتزام ، وظاهرة تلق وعطاء ، وهو في هذا الحديث الالهي المعجز يعدد نعم الله على الانسان لايقاظ وعيه بها ، وتعميق حضورها في غيابه عسى أن يفيق :

« الله الذي خلق السموات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الانسان لظلوم كفار » (ابراهيم : ٣٢ ـ ٣٤) .

واللافت هنا أن هذه النعم المكفور بها هى الاطار المادى الذى يحيا داخله هذا الانسان الظالم لنفسه ، الكفار بخالقه ، وكان قميناً به ما دام معتزاً بسطوته وامتلائه أن يفهم عن الاطار المادي الذي يحتويه .. إن مطالبة الانسان بتأمل حقائق المعاني ، وأسرار القضايا أبعد في بذل الجهد من مجرد تأمل الاطار المادي الذي يلامسه في واقعه الحياتي .. فالسموات والأرض ، والمطر والثمر ، والفلك والبحر ، والشمس والقمر ، والليل والنهار .. كلها ظواهر طبيعية تقتحم على الانسان فكره ووعيه ، وتخاطب فيه منطق الايمان بأكثر من لغة ، وأعمق من حوار .. فلماذا إذن يتطوح هذا الانسان بعيداً في مجاهل كفره ظالماً لنفسه ، ولقضية وجوده على الأرض ؟ أليس لأنه ظلوم كفار

الانسان حبيس الواقع المادي :

ويتحدث القرآن الكريم عن مستوى فقدان الانسان لذكاء الطبيعة ، وانحصاره في ضيق الواقع المادي الذي يعيشه ولا يتجاوزه إلى ما عداه ، حديثاً يصادم غرور هذا الكائن المتفلت ، ويلوح له بهشاشة منطقة ، وخطل مقدماته التي يبنى عليها نتائجه القبيحة :

« ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حياً ، أو لا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً » (مريم : ٦٦ـ٦٧) .

« وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الانسان لكفور » (الحج : ٦٦) .

« قتل الانسان ما أكفره ، من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره » (عبس : ١٧ ـ ٢٢) .

« كلا إن الانسان ليطغى . أن رآه استغنى . إن إلى ربك الرجعى » (العلق : ٦ ـ ٨) .

« إن الانسان لربه لكنود . وإنه على ذلك لشهيد . وإنه لحب الخير لشديد . أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور . وحصل ما في الصدور . إن ربهم بهم يومئذ لخبير » (العاديات : ٦ـ١١) .

هنا يضع القرآن الانسان أمام غبائه الطبيعى الذي يوحي إليه أن رحلته من هنا تبدأ وهنا تنتهى ، ويضع تصوره لقضية السلوك مع خالقه على هذا الأساس الضامر المغلوط .. إن القرآن يلفته بقوة آسرة إلى أن حدود الحياة أبعد من هذه الحدود الدنيا ، وأن الآخرة لابد أن تدخل في حساب المعادلة حتى يستقيم الحكم وتعتدل الموازين ، لأن اجتزاء فصل من القضية وإسقاط حكم عليه يخطىء الحكم ويشوه القضية ، والقرآن يريد لانسانه المسلم أن يكون ثاقب الحكم في كل قضاياه .

وهكذا يدور حديث القرآن الكريم عن تمرد (الانسان) ـ بلفظ الانسان ـ على مستويات متعددة ، فلا يفلت خالجة من خوالج النفس . ولا شاردة من شوارد الضمير ، ولا يميل في حديثه عن كل هذه الجوانب إلى تكرار ممل ، او استطراد غير مطلوب ، ولكنه ينتقل من وضعية إلى وضعية مقابلة ، ليحيط في النهاية بكل آفاق الظاهرة .. فهو ينتقل من وضعية ضراعة الانسان في الشدة وتمرده في الرخاء ، إلى وضعية مسرة الانسان في العطاء وكفره في المنع .. وهما قضيتان متقابلتان تماماً .. ثم ينتقل إلى وضعية بطر الانسان في النعمة ـ وليس مسرته ـ ويأسه في الحرمان ـ وليس كفره .. ثم يواصل رحلة كشف الطبيعة الانسانية في تدليها وهبوطها بتسليط الضوء على فقدان الانسان لحكمة الوعي بما تضفيه العناية الخالقة على وجوده من آلاء .. واخيراً يحدد في الانسان غباء محدوديته ، وميله إلى الانحصار في عالم مادي لا يرى أبعد منه .. وهكذا يدور الحديث شاملا لكل الزوايا والأنحاء بلا تكرار ممل أو استطراد مطلوب ، وتعالى القرآن عن ذلك علواً كبيراً .